وإليه تُقْلبون: وإليه ترجعون وتردّون(١)

ولا في السّماء : لو كنتم في السّماء(٢)

من ولّيٍ ولا نصير: من ولّي يلي أموركم ولا نصيرٍ ينصركم(٣)

بعد أن كان في الآية الكريمة الأخيرة السّابقة تهديدٌ للكافرين بأنّ مصيرهم سيكون مثل مصير الكافرين السّابقين إن لم يتوبوا إلى الله تعالى توبةً نصوحاً، وكان تقريرٌ بأنّ الرّسول من الله تعالى ليس عليه سوى البلاغ المبين والأداء الواضح، وعلى الله تعالى وحده لا شريك له الحساب ، تأتي الآيات الكريمات المعترضات، الّتي فيها تهديدٌ لكفّار مكّة ومن شاكلهم ، وذلك بين شقّي الحديث على لسان ابراهيم عليه السّلام يدعو قومه إلى دين الإسلام لله تعالى ربّ العالمين ، ومعنى الآيات الكريمات الخمس ، والله تعالى أعلم ، على النّحو التّالي:

أعمي كفّار مكّة ولم يروا كيف يبدأ الله تعالى الخلق من العدم ثمّ يعيده عزّ وجلّ إذا شاء. إنّ ذلك كلّه يسيرٌ على الله تعالى ، علماً بأنّ في تقديركم أيّها النّاس أنّ إعادة العمل أهون من صنعه ابتداءً. كيف يكون هذا القانون صحيحاً في حقّكم أيّها المخلوقون وتنكرونه في حقّ الخالق جلّ وعلا البارىء المصوّر! لا يكاد العجب ينتهي من سوء أحكام المشركين وتقديراتهم .

قل يا محمّد لكفّار مكّة سيروا في الأرض فانظروا ببصائركم وعقولكم كيف بدأ الله تعالى الخلق. ثمّ الله تعالى ينشىء النّشأة الآخرة يوم القيامة ، بالحياة بعد الموت ، والنّشور ، والحساب ، والجزاء ، الثّواب أو العقاب. إنّ الله سبحانه وتعالى على كلّ شيءٍ قدير ، فلا يعجزه عزّ وجلّ شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٩٠

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٩٠

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/ ٩٠

والله سبحانه وتعالى يعذّب من يشاء تعذيبه في الدّنيا والآخرة ، ويرحم من يشاء رحمته في الأولى والآخرة ، وإليه نرجع جميعاً بعد الموت.

وما أنتم أيّها الكافرون بمعجزى الله تعالى ولا فائتيه إن أرادكم بسوء ولا بسابقيه في الأرض الّتي تعيشون عليها ، ولا في السّماء لو كنتم فيها. وليس لكم أيّها الكافرون ، حينما يريد الله تعالى أن يأخذكم بعذابٍ ، من دون الله تعالى ، منْ وليّ يتولّى أموركم ويرعى مصالحكم ، ولا نصيرٍ يدفع عنكم العذاب أو يصرفه..

وإنّ الّذين كفروا بآيات الله تعالى وفي مقدّمتها القرآن الكريم ، وكفروا بلقاء الله تعالى يوم القيامة وبالبعث بعد الموت ، أولئك يئسوا من رحمة الله تعالى في الآخرة ، ومن دخول جنّته عزّ وجلّ ، لمّا رأوا مقعدهم من النّار ، وأولئك لهم عذابٌ موجع.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾

فما كان جواب قوم إبراهيم عليه السّلام عابدي الأصنام الّذين أخذتهم حميّة الانتصار لآلهتهم الّتي أهانها إبراهيم عليه السّلام وحطّمها والّذين أخذتهم العزّة بالإثم لتسفيهه عليه السّلام أحلامهم إلاّ أن قالوا اقتلوا إبراهيم أو حرّقوه بالنّار تحريقاً. وقد استقرّ رأيهم على تحريقه عليه السّلام بالنّار فذلك أذهب لغيظ قلوبهم وحنق صدورهم عليه. لقد بنوا لهذه الغاية الخسيسة بنياناً ملؤوه بالحطب الجزل وأضرموا فيه النار المتأجّجة وألقوا إبراهيم عليه السّلام فيها بواسطة المنجنيق فأنجى الله تعالى إبراهيم عليه السّلام منها وجعلها برداً عليه وسلاماً فلا يتأذّى بالبرد ، رغم طول بقائه عليه الصّلاة والسّلام في النّار ظاهراً في البرد باطنا.

إنّ في إنجاء الله تعالى إبراهيم عليه السّلام من النّار لآياتٍ بيّناتٍ دالاّتٍ على

قدرة الله تعالى المطلقة لقومٍ يؤمنون بالله تعالى ويدينون بدين الإسلام لله تعالى ربّ العالمين.

وممّا جاء في سورة الصّافّات[1] قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم. فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين﴾ وفي سورة الأنبياء[2] قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم. وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾.

---

(١) الآية ٩٧ و ٩٨

(٢) الآيات ٦٨ ـ ٧٠

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾

مودّة: مفعولٌ لأجله منصوب(١)

بعد أن بيّن السّياق في الآية الكريمة السّابقة موقفَ عُبّاد الاصنام من إبراهيم عليه السّلام وإنجاء الله تعالى له من النّار، عاد السّياق إلى مواصلة الحديث على لسان إبراهيم عليه السّلام، الّذي عاب فيه على قومه عبادة الأوثان، وبذلك تكون الآيات المعترضات ١٨ ـ ٢٤.

إنّ إبراهيم عليه السّلام يقول لقومه: إنّما اتّخذتم من دون الله تعالى أوثاناً تعبدونها لأجل المودّة بينكم في الحياة الدّنيا، وبباعث حبّكم لتلك الأصنام، وفرط تقديسكم لها: ﴿ثمّ يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض﴾ فيتبرّأ السّادة والكبراء من الأتباع، ويلعن الأتباع السّادة والكبراء، ومأواكم جميعاً النّار وبئس القرار، وما لكم من ناصرين ينصرونكم بمنع العذاب عنكم أو تحويله. وممّا جاء في هذه المعاني بشيءٍ من التفصيل قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الأعراف(٢): ﴿فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً أو كذّب بآياته. أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/١١٨

(٢) الآيات ٣٧ ـ ٣٩

حتّى إذا جاءتهم رسلنا يتوفّونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله. قالوا ضلّوا عنّا وشهدوا على أنفسهم أنّهم كانوا كافرين. قال ادخلوا في أممٍ قد خلت من قبلكم من الجنّ والإنس في النّار. كلّما دخلت أمّةٌ لَعَنَتْ أختها حتّى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربّنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النّار. قال لكلّ ضعفٌ ولكن لا تعلمون. وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضلٍ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾.

فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ
إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ
وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

فصدّق إبراهيمَ عليه السّلام ابنُ أخيه لوطٌ عليه السّلام. وقال إبراهيم عليه السّلام إنّي مهاجرٌ من العراق إلى حيث أمرني ربّي أن أهاجر ، إلى الشّام. إنّ ربّي جلّ وعلا هو العزيز في ملكه الحكيم في صنعه.

ووهب الله تعالى إبراهيم عليه السّلام ، فضلاً منه عزّ وجلّ ونعمة ، بعد ولده إسماعيل عليه السّلام ، ومنحه في حياته ولده إسحاق عليه السّلام ، وولد ولده يعقوب بن إسحاق عليهما السّلام. وجعل الله تعالى في ذرّيّة إبراهيم عليه السّلام النّبوّة والكتب السّماويّة كلّها ، فكلُّ الأنبياء بعد إبراهيم عليه السّلام من ذرّيّته. إنّ كلّ أنبياء بني إسرائيل ، وهو يعقوب عليه السّلام ، من ذرّيّة إسحاق ابن إبراهيم عليهما السّلام. وإنّ محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم ، خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين ، من ذرّيّة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السّلام. وهكذا يكون كلّ النّبيّين بعد إبراهيم عليه السّلام من ذرّيّة ولديه إسماعيل وإسحاق عليهما

السّلام ، ومن هنا كان إبراهيم عليه السّلام أبا الأنبياء.

وكما جعل الله تعالى في ذرّيّة إبراهيم عليه السّلام النّبوّة جعل في ذرّيّته الكتب السّماوية ، وهي توراة موسى عليه السّلام ، وزبور داود عليه السّلام ، وإنجيل عيسى عليه السّلام ، والقرآن الكريم الّذي أوحاه الله تعالى إلى محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم.

وقد آتى الله تعالى إبراهيم عليه السّلام أجره في الدّنيا ، وهو الذّكر الحسن لدى أهل جميع الملل. وقد جاء على لسان إبراهيم عليه السّلام قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الشّعراء[1] : ﴿واجعل لي لسان صِدْقٍ في الآخرين﴾ والمراد بذلك الذّكر الحسن في القرون التّالية. وقد استجاب الله تعالى دعاء إبراهيم عليه السّلام.

وإبراهيم عليه السّلام في الآخرة من الصّالحين ، المنعم عليهم من المرسلين والنّبيّين ، عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين ، ومن اهتدى بهديهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدّين.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ
مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾
أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ
فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ
أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

---

(١) الآية ٨٤

ولوطاً: واذكر لوطا(١)

ما سبقكم بها: بها جارٌّ ومجرور متعلّقان بحالٍ من ضمير المفعول ، أي متلبّسين بها(٢)

من أحد من العالمين : لم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحدٌ من بنى آدم قبلهم(٣)

أئنّكم لتأتون الرّجال: في أدبارهم(٤) والهمزة للاستفهام الإنكاري(٥)

وتقطعون السّبيل: طريق المارّة بفعلكم الفاحشة بمن يمرّ بكم. فترك النّاس الممرّ بكم(٦) كما كانوا يقفون في طريق النّاس يقتلونهم ويأخذون أموالهم(٧)

واذكر يا محمّد لوطاً عليه السّلام حين قال لقومه منكراً عليهم: إنّكم لتأتون الذّكران في أدبارهم وتفعلون الفاحشة الّتي لم يسبقكم إليها ولم يتلبّس بها أحدٌ من بنى آدم قبلكم. أئنّكم لتأتون الرّجال في أدبارهم ، وتقطعون الطّريق على المارّة بفعلكم الفاحشة بمن يمرّ بكم من المسافرين فترك النّاس الممرّ بكم ، وتأتون في ناديكم ما ينكره الدّين والعقل والعُرْف من اعتلاء بعضكم بعضاً وإتيان الذّكران في أدبارهم!

فما كان جواب قوم لوطٍ عليه السّلام على إنكاره عليهم إلاّ أن قالوا بكلّ وقاحةٍ وقباحةٍ وكفرٍ واستهزاء: ائتنا يالوط بعذاب الله تعالى الّذي تعدنا وتهدّدنا به إن كنتَ من الصّادقين في قولك إنّ الفاحشة الّتي نأتيها ممّا يُنْكر شرعاً وعقلاً وعُرْفاً ، وإنّ عذاب الله تعالى سوف ينزل بالّذين يأتون مثل أفعالنا!

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٩٣

(٢) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ١٢٠

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٨٥

(٤) تفسير الطّبري ٢٠/ ٩٣

(٥) الجدول في اعراب القرآن وصرفه ١٠/ ١٢٠

(٦) الجلالين وانظر تفسير الطّبري ٢٠/ ٩٣

(٧) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٨٥

فرّ لوطٌ عليه السّلام إلى الله تعالى الّذي أمر بالقسط ونهى عن الفواحش ماظهر منها وما بطن ودعاه عزّ وجلّ أن ينصره على القوم المفسدين في الأرض.

ومن أهمّ ما يُلاحَظ أنّ جملة: «أتى» الّتي تُستَعمَل في القرآن الكريم دليلاً على البعد تأتي أربع مرّات في الآيتين الكريمتين الأوليين. إنّها تأتي ثلاث مرّات للتّنبيه على صعوبة الأمر الّذي يأتيه القوم، من إتيان الذّكران في أدبارهم وهو الفاحشة، وإتيان الرّجال في أدبارهم، وإتيانهم المنكر شرعاً وعقلاً وعرفاً. وإنّ الجملة تأتي للمرّة الرّابعة دليلاً على استبعاد القوم العذاب وإنكارهم له، وذلك في القول: ﴿قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصّادقين﴾ وهكذا تدلّ جملة: «أتى» في القرآن الكريم دائماً على البُعْد بأنواعه المعنويّة والزّمانيّة والمكانيّة. والله تعالى أعلم.

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ
أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ
وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾

ولمّا جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى: من الله بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب(١)

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٩٤

هذه القرية: قرية سذوم ، بالذّال ، ويقال سدوم ، بالدّال: قرية قوم لوطٍ عليه السّلام ، تقع جنوبيّ البحر الميّت(١)

من الغابرين: الباقين في العذاب(٢)

استنصر لوطٌ عليه السّلام ربّه جلّ وعلا على قومه الظّالمين الّذين يأتون الذّكران ويعلونهم ، فأرسل الله تعالى ملائكة لنصرته عليه السّلام ، فمرّوا بإبراهيم عليه السّلام ابتداءً . وحينما لم يأكل الملائكة الطّعام الّذي قدّمه لهم إبراهيم عليه السّلام وأحسّ بالخوف منهم أخذوا يلاطفونه فبشّروه بإسحاق ويعقوب بن إسحاق عليهما السّلام ، وقالوا له إنّهم سيهلكون أهل قرية لوط عليه السّلام الظالمين. قال إبراهيم عليه السّلام الحليم الأوّاه المنيب: إنّ في هذه القرية لوطاً نبيّ الله تعالى. قالوا نحن أعلم بمن فيها من المؤمنين بقيادة لوطٍ عليه السّلام الّذي سوف ننجّيه ومن معه من المؤمنين من أهله ، وبمن فيها من الظّالمين المهلكين، ومنهم امرأة لوطٍ عليه السّلام المتواطئة مع قومها ضدّ لوطٍ عليه السّلام ، لذا فإنّها من ضمن الباقين في العذاب المشمولين بالهلاك.

وقد فصّلت الحديثَ في هذه المعاني كلٌّ من سورة الحِجرْ في الآيات الكريمات ٥١ ـ ٧٧ وسورة هود في الآيات الكريمات ٦٩ ـ ٨٣ جاء في سورة هود(٣) قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ولقد جاءت رسلُنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلامٌ فما لبث أن جاء بعجلٍ حنيذ. فلمّا رأى أيديهم لا تصل إليه نَكِرَهم

---

(١) انظر تفسير الطّبري ٢٠/ ٩٤ ومعجم البلدان: «سدوم» وتفسير ابن كثير ٦/ ٢٨٧

(٢) الجلالين

(٣) الآيات ٦٩ ـ ٧٦

وأوجس منهم خيفة. قالوا لا تخف إنّا أُرْسلنا إلى قوم لوط. وامرأته قائمةٌ فضحكت فبشّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. قالت يا ويلَتَي أألد وأنا عجوزٌ وهذا بعلي شيخاً. إنّ هذا لشيءٌ عجيب. قالوا أتعجبين من أمر الله رحمةُ الله وبركاته عليكم أهل البيت. إنّه حميدٌ مجيد. فلمّا ذهب عن إبراهيم الرَّوْعُ وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط. إنّ إبراهيم لحليمٌ أوّاهٌ منيب. يا إبراهيم أعرض عن هذا. إنّه قد جاء أمر ربّك وإنّهم آتيهم عذابٌ غير مردود﴾.

وَلَمَّآ
أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا
وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ
كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ
هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ
﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

سيء بهم: ساءته الملائكة بمجيئهم إليه(١)

وضاق بهم ذرعاً: القول: ضاق بكذا ذرعي نحو ضاقت به يدى. والذّراع العضو المعروف ويعبّر به عن المذروع ، أي الممسوح بالذّراع(٢)

رجزاً: عذاباً(٣)

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٩٥

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «ذرع» ١/ ٢٣٦

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/ ٩٥

ولّما أن جاءت ملائكة العذاب لوطاً عليه السّلام في صورة شبّانٍ حسان حزن عليه السّلام لمجيئهم ، وأصابه الأسى بسبب الخوف عليهم من قومه ، وقلّت حيلته ، وضاق صدره. نهبت ملائكة العذاب لوطاً عليه السّلام عن الخوف عليهم من قومه ، والحزن لما سوف يحلّ بقومه من هلاك ، وبشّروه بأنّهم سوف ينجّونه بإذن الله تعالى وأهله من العذاب إلاّ امرأته المتواطئة مع قومها ، فإنّها سيشملها هي الأخرى العذاب. وبيّن الملائكة نوع العذاب. إنّهم سوف ينزلون على أهل تلك القرية عذاباً من السّماء بقلب القرية رأساً على العقب بسبب فسق أهلها ، وخروجهم عن الصّراط المستقيم. ولقد ترك الله تعالى من تلك القرية الّتي قُلبت في السّماء رأساً على عقب عبرةً واضحة لقومٍ يستعملون عقولهم استعمالاً صحيحاً. وإلى هذه العبرة أشار قول قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الصّافّات(١): ﴿وإنّكم لتمرّون عليهم مصبحين وباللّيل أفلا تعقلون﴾.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾

(١) الآية ١٣٧ و١٣٨

وأرسل الله تعالى إلى قبيلة مدين بمدينة مدين ، أخاهم وابن مدينتهم شعيباً عليه السّلام يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له. قال شعيبٌ عليه السّلام يا قوم اعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له ، وارجوا بعبادتكم ثواب الله تعالى يوم القيامة ، ولا تشيعوا الفساد في الأرض معنىً بالشّرك والصّدّ عن سبيل الله تعالى وما إلى ذلك ، وحسّاً بقطع الطّريق وتطفيف الكيل والوزن وما إلى ذلك.

أصرّ أهل مدين على تكذيب شعيبٍ عليه السّلام فأخذتهم الزّلزلة العنيفة فأصبحوا في دارهم جاثمين على ركبهم ميّتين.

ومن الآيات الكريمات الّتي فصّلت الحديث عن أهل مدين قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الشّعراء(١) : ﴿كذّب أصحاب الأيكة المرسلين. إذ قال لهم شعيبٌ ألا تتّقون. إنى لكم رسولٌ أمين. فاتّقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجري إلاّ على ربّ العالمين. أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين. وزنوا بالقسطاس المستقيم. ولا تبخسوا النّاس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين. واتّقوا الّذي خلقكم والجبلّة الأوّلين. قالوا إنّما أنت من المسحّرين. وما أنت إلاّ بشرٌ مثلنا وإن نظنّك لمن الكاذبين. فأسقط علينا كسَفاً من السّماء إن كنت من الصّادقين. قال ربّى أعلم بما تعملون. فكذّبوه فأخذهم عذاب يوم الظُّلّة. إنّه كان عذاب يومٍ عظيم. إنّ في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين. وإنّ ربّك لهو العزيز الرّحيم﴾.

والظّلّة سحابةٌ أظلّتهم بعد حرٍّ شديد فأمطرت عليهم ناراً.

---

(١) الآيات ١٧٦ ـ ١٩١

وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ
لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾

وعاداً وثمود: وأهلكنا عاداً وثمود(١)

وكانوا مستبصرين: في ضلالتهم معجبين بها يحسبون أنّهم على هدى وصواب وهم على الضّلال(٢)

وأهلك الله تعالى عاداً قوم هودٍ عليه السّلام بالاحقاف بالقرب من حضرموت في جنوبّي جزيرة العرب ، وثمود قوم صالحٍ عليه السّلام بالحِجْر بالقرب من وادي القرى في شماليّ جزيرة العرب. وقد تبيّن لكفّار مكّة وسواهم هلاك القوم من مساكنهم الّتي دمّرت ، وقصورهم الّتي تهدّمت ، وديارهم الّتي خلت من ساكنيها. وقد زيّن الشّيطان الرّجيم لعادٍ وثمود سوء أعمالهم فصدّهم عن سبيل الرّشاد وصرفهم عن طريق الهدى. والعجيب في شأن عادٍ وثمود أنّهم كانوا سعداء بكفرهم ، فرحين بضلالهم ، ولم يفطنوا إلى أنّ بصائرهم قد عميت وقلوبهم قد غطّى عليها سوء المعتقد والعمل إلاّ بعد فوات الأوان. لقد كان كلٌّ من الفريقين مهّيئاً لأن يهتدي ولكنّهم آثروا العمى على الهدى والضّلال على الرّشاد.

---

(١) الجلالين

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/٩٦

وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾

وما كانوا سابقين: وما كانوا سابقينا بأنفسهم فيفوتوننا بل كنّا مقتدرين عليهم(١)

وأهلك الله تعالى قارون الّذي كان من قوم موسى عليه السّلام من بني إسرائيل والّذي كانت مفاتيح خزائنه تنوء بها العصبة أولو القوّة من الرّجال. وأهلك كذلك فرعون طاغية مصر ووزيره هامان القبطيّين الكافرين. ولقد جاءهم موسى عليه السّلام من قبل بالآيات البيّنات والحجج الواضحات فاستكبروا في أرض مصر وطغوا وبغوا فأخذهم الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر ، وما كانوا فائتين الله تعالى ولا معجزينه. لقد خسف الله تعالى بقارون وبداره الأرض ، وأغرق فرعون وهامان وجنودهما ، ونجّى موسى عليه السّلام والمؤمنين معه من فرعون وجنوده ومن البحر ووصلوا جميعاً إلى شبه جزيرة سيناء سالمين غانمين.

(١) تفسير الطّبري ٢٠/٩٦

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

إنّ كلاً من هؤلاء الكافرين المستكبرين الّذين ذكرتهم السّورة الكريمة قد أخذه الله تعالى بذنبه وأهلكه بسبب جُرْمه. إنّ من هؤلاء من أرسل الله تعالى عليه حاصباً ، وهم قوم لوط ، الّذين أمطر الله عليهم حجارة من سجّيلٍ منضود. والعرب تسمّى الرّيح العاصف الّتي فيها الحصى الصّغار أو الثّلج أو البرد والجليد حاصباً(١) جاء في سورة القمر(٢) قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿كذّبت قوم لوطٍ بالنّذر. إنّا أرسلنا عليهم حاصباً إلاّ آل لوطٍ نجّيناهم بسحر﴾ وإنّ من هؤلاء من أخذته الصّيحة أي الصّاعقة كمدين. قال تعالى(٣): ﴿ولمّا جاء أمرنا نجّينا شعيباً والّذين آمنوا معه برحمةٍ منّا وأخذت الّذين ظلموا الصّيحة فأصبحوا في ديارهم

(١) تفسير الطبري ٢٠/٩٦

(٢) الآية ٣٣ و٣٤

(٣) سورة هود ٩٤

جاثمين﴾ وكعاد وثمود. قال تعالى[1]: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقةً مثل صاعقة عادٍ وثمود﴾ وإنّ من هؤلاء من خسف الله تعالى به وبداره الأرض كقارون. قال تعالى[2]: ﴿فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئةٍ ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين﴾ وإنّ منهم من أغرقه الله تعالى ، يعنى قوم نوحٍ وفرعون وقومه[3]

إنّ الله سبحانه وتعالى ما كان ليظلم أولئك الأقوام ولكنّهم كانوا يظلمون أنفسهم ، لأنّ وبال تكذيبهم واستكبارهم مرتدٌّ عليهم.

---

(١) سورة فصّلت ١٣

(٢) سورة القصص ٨١

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/٩٧

(٣)

«الله تعالى العزيز الحكيم العليم الذي يضرب الأمثال هو المستحق وَحْدَه أن يعبد ويُذْكر ، والآلهة المزعومة واهنة كبيت العنكبوت»

الآيات (٤١ ـ ٤٥)

مَثَلُ ٱلَّذِينَ
ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ
ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ
لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن
دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ
ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ
﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

مَثَلُ الّذين اتّخذوا من دون الله تعالى آلهةً زائفةً وأصناماً وأوثاناً يعبدونها من دون الله تعالى يرجون نفعها ويخافون ضرّها في سوء المنقلب كمثل العنكبوت اتّخذت بيتاً تأوى إليه وتنام فيه فكان عاقبتها الخُسْران ، لأنّ أضعف البيوت في الدّنيا وأهونها بيت العنكبوت. وكما لم يحقق بيت العنكبوت شيئاً من السّكينة والطّمأنينة لساكنه لم تحقّق الآلهة المزعومة شيئاً من جلب النّفع أو دفع الضّرّ لعابديها. إنّ كلّ الّذي تفعله الآلهة المزعومة هو جلب الضّرّ والأذى لعابديها ، وبذلك يتحقّق عكس المطلوب. والعجيب بشأن بيت العنكبوت أنّ العلم الحديث قد أثبت أنّ هذا البيت مأوى الأذى والقذى والهلاك. إنّ انثى العنكبوت هي الّتي تبني البيت. وبمجرّد أن يتمّ تلقيحها بواسطة ذكرها تعمد إلى قتله وأكله ، لذا هو يحرص على الفرار من البيت بعد عمليّة التّلقيح فوراً. فإذا قُدّرت له النّجاة لا يعود إلى ذلك البيت أبداً. أمّا الأبناء فإنّهم بعد الخروج من البيض يأكل بعضهم بعضاً. وأنثى العنكبوت تجعل من بيتها كميناً لكلّ حشرةٍ صغيرة تفكّر في الاقتراب

منه. إنّ كلّ ضيفٍ وزائرٍ يدخل بيت العنكبوت مصيره القتل![1]

وهكذا لا يأتي من كلٍ من عبادة الأصنام والأوثان ومن بيت العنكبوت إلاّ الأذى والهلاك. ما أضعف الآلهة المعبودة من دون الله تعالى وأشدّ أذاها وما أضعف بيت العنكبوت وأشدّ أذاه.

إنّ الله سبحانه وتعالى يعلم ما يعبد كفّار مكّة ومن شاكلهم من آلهةٍ مزعومةٍ عاجزة. وإنّ الله سبحانه وتعالى هو العزيز في ملكه الحكيم في قضائه وتدبيره.

وتلك الأمثال يضربها الله تعالى للنّاس ويجعلها في القرآن الكريم كي يعقلوها ويتدبّروها ويأخذوا الفائدة والعبرة منها، وينتفعوا من تقريب المعاني البعيدة القصيّة بالأمور الحسيّة. إنّ العاقل كما أنّه يأنف أن ينحطّ إلى درك مجرّد التّفكير في اتّخاذ بيت العنكبوت بيتاً له، هو كذلك يأنف أن ينحطّ إلى درك عبادة الآلهة المزعومة العاجزة المقهورة. إنّ البيت الآمن معروفٌ طريقه وموجود، وإنّ الإله المستحقّ أن يُعْبَدَ وحده لا شريك له معروفٌ سبيله ومقصودٌ، وهو أقرب للإنسان من حبل الوريد.

وفي مقابل العجز المطلق للآلهة المزعومة، هنالك القدرة المطلقة للذّات العليّة. إنّ الله تعالى هو الّذي خلق السّماوات والأرض بالحقّ وليس عبثاً ولا باطلاً. وأنّ في ذلك لآيةً بيّنه للمؤمنين تزيدهم إيماناً وتجعلهم يريدون بأعمالهم الصّالحة بمقياس الإسلام وجه الله تعالى وحده لا شريك له.

اُتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ
وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ
وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

(١) انظر هنا القرآن محاولة لفهمٍ عصري مصطفى محمود ص ٢٩٢ ـ ٢٩٤ دار الشّروق الطّبعة الثّانية ١٩٧٠م

الفحشاء: الزّنا(١)

والمنكر: معاصي الله(٢)

ولذكر الله أكبر: من غيره من الطّاعات(٣)

الخطاب هنا للمصطفى صلّى الله عليه وسلّم ولكلّ مؤمن ، لأنّه صلّى الله عليه وسلّم الأسوة الحسنة للمؤمنين. تأمر الآية الكريمة النّبي صلّى الله عليه وسلّم أصلاً ، كلَّ مؤمنٍ تبعاً ، بأن يتلو ما أوحى الله تعالى إلى حبيبه صلّى الله عليه وسلّم من آي الكتاب العزيز الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد ، وبأن يقيم الصّلاة المفروضة بأركانها وواجباتها وسننها وكلّ مقوّماتها. ومن مقوّمات الصّلاة تلاوة القرآن الكريم. وبذلك يكون ثمّة أمرٌ بتلاوة القرآن الكريم في الصّلاة وفي غير الصّلاة. وتقرّر الآية الكريمة أنّ من نعوت الصّلاة أنّها تنهى المصلّي عن إتيان كلّ الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن ، وعن إتيان كلّ ما ينكره الدّين والعقل والعرف ، ما صغر منه وما كبر.

وتقرّر الآية الكريمة أنّ ذكر الله تعالى أكبر من غيره من الطّاعات. وإنّما كان ذكر الله تعالى هو الأكبر من الطّاعات لأنّه يسهل القيام به في كلّ الأوقات والأحوال ولأنّه يتضمّن سائر الطّاعات. إنّ ذكر الله تعالى يكون بالقلب ، وباللّسان ، والجوارح ، وبذلك يشمل الذّكر تلاوة القرآن الكريم ، وإقام الصّلاة ، والتّسبيح والتّحميد والتّهليل والتّكبير وسائر أنواع الذّكر والطّاعات.

وبسبب شمول الذّكر سائر الطّاعات وتعدّد وسائله من قلبٍ ولسانٍ وجارحة

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/٩٩

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/٩٩

(٣) الجلالين

لم يضع الشّارع الحكيم للذّكر وَحْدَهُ نهـايةً وحداً. ومن ذلك قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الأحزاب(١): ﴿يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً. وسبّحوه بكرةً وأصيلاً﴾

إنّ واجب كلّ مسلمٍ لله تعالى ربّ العالمين أن يكثر من تلاوة القرآن الكريم، وأن يقيم الصّلاة بكامل أركانها وواجباتـها وسننها وشروطها، وأن يذكر الله تعالى ذكراً كثيراً، وأن يسبحّه عزّ وجلّ في كلّ الأوقات.

وتقرّر الآية الكريمـة في ختامـها أنّ الله تعالى يعلم مـا نصنع وما نجـيد من فعلٍ. وكمـا يشمل العلم فعل الصّالحات الّتي يـثيبنا الله تعالى عليهـا يشمل فعل السّيّئات الّتي نعاقب عليها. إنّ العلماء الّذين يعقلون عن الله تعالى ضرب الأمثال وإيحاء الآيات يفعلون الخـيرات ويستبقون إلى فـعلها ويهجرون السّيّـات ويتركون المنكرات، ويستعينون بالله تعالى أوّلاً وآخـراً على كلّ ما يفعلون ويأتون ، يتركون ويهجرون.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله ربّ العالمين.

مكّة المكرّمة

صبيحة يوم الأحد الثّلاثين

من شهر رمضان المبارك عام ١٤١٩هـ

الموافق ١٧/ ١/ ١٩٩٩م

كتبه الفقير إلى عفو ربّه

د. حسن محمّد باجودة

أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة

جامعة أمّ القرى بمكّه المكرّمة

---

(١) الآية ٤١ و٤٢

فهرست الموضوعات

الموضوع	رقم الآيات	رقم الصفحة
المقدمة		
أولاً: تمام سورة النّمل		٩
بين يدي التّفسير		١٥
التّفسير		٢٣ ـ ٦٤
١ـ الحمد لله تعالى الّذي قطع دابر قوم لوطٍ عليه السّلام والذي له الخلق والأمر.	٥٦ ـ ٦٦	٢٥
٢ـ إصرار الكافرين على إنكار البعث ، وتثبيت فؤاد المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ، والقرآن الكريم هدىً ورحمةٌ للمؤمنين.	٦٧ ـ ٨١	٤٣
٣ـ خروج الدّابّة والنّفخ في الصّور من علامات السّاعة ، وثواب المؤمنين وعذاب الكافرين، ووجوب إفراد الله تعالى بالعبادة والاهتداء بالقرآن الكريم.	٨٢ ـ ٩٣	٥٣
ثانياً: سورة القصص		٦٥
بين يدي التّفسير		٧٩
التّفسير		١٠٣ ـ ٢٤٠
١ـ نتلو عليك يا محمّد من نبأ موسى وفرعون بالحقّ لتثبيت فؤادك وأفئدة المؤمنين.	١ ـ ٦	١٠٥
٢ـ موسى عليه السّلام قبل الرّسالة	٧ ـ ٢٨	١١٣
٣ـ موسى عليه السّلام بعد الرّسالة	٢٩ ـ ٤٣	١٦٧
٤ـ القرآن الكريم كلام الله تعالى، وإصرار كافري قريش واليهود على الكفر بالقرآن الكريم والتّوراة	٤٤ ـ ٥١	١٩١

٥ ـ منْ أهل الكتاب مؤمنون يستحقّون الثّواب ، ومن قوم المصطفى صلّى الله عليه وسلّم كافرون يستحقّون العقاب.	٥٢ ـ ٦١	١٩٩
٦ ـ عذاب المصّرين على الإعراض عن آيات الله تعالى وهلاكهم يوم القيامة وفوز المؤمنين.	٦٢ ـ ٧٥	٢١١
٧ ـ خَسَفَ الله تعالى بقارون الباغي وبداره الأرض.	٧٦ ـ ٨٢	٢٢٣
٨ ـ ثواب المحسنين وعقاب المسيئين وتثبيت فؤاد المصطفى صلّى الله عليه وسلّم	٨٣ ـ ٨٨	٢٣٣
ثالثاً: سورة العنكبوت حتّى نهاية الجزء العشرين		٢٤١
بين يدي التّفسير		٢٤٩
التّفسير		٢٥٩ ـ ٣٠٠
١ ـ ثواب المؤمنين الصّابرين عظيم، وعذاب الكافرين والمنافقين أليم.	١ ـ ١٣	٢٦١
٢ ـ إهلاك الله تعالى الكافرين ، وإنجاء المرسلين وأتباعهم ، وتثبيت فؤاد المصطفى صلّى الله عليه وسلّم وأفئدة المؤمنين.	١٤ ـ ٤٠	٢٧٣
٣ ـ الله تعالى العزيز الحكيم العليم الّذي يَضْرِبُ الأمثال هو المستحقّ وَحْدَه أن يُعْبَد ويُذْكر،والآلهة المزعومة واهنةٌ كبيت العنكبوت	٤١ ـ ٤٥	٢٩٥